موقع الأديب
علي أحمد باكثير
www.bakatheer.com

محاربة الجمود والدعوة إلى التجديد في شعر باكثير في المرحلة الحضرمية

د. مسعود عمشوش - اليمن

عاد علي أحمد باكثير من إندونيسيا وطن مولده إلى حضرموت وطن آبائه وأجداده وهو في سن العاشرة من العمر،(١) وأخذ قسطا وفيرا من التعليم الأولي في المدرسة الخيرية بسربايا، أحضره أبوه إلى حضرموت ليتلقى علوم العربية والفقه والحديث، وذلك مثل كثير من أبناء المهاجرين الحضارم المقيمين في الأرخبيل الهندي حينذاك. وقد التحق باكثير منذ وصوله إلى سيئون بمدرسة النهضة العلمية التي كانت تدرس العلوم الدينية والعربية، وسرعان ما ارتقى فيها إلى الصفوف العليا، وحفظ كتاب الله، وألم بعلوم الفقه والحديث والسيرة. وبفضل تميّزه وتفوقه تم تعيينه مديرا للمدرسة حتى قبل أن يتجاوز سن العشرين. لكن من المؤكد أن الشاب علي باكثير قد صدم كثيرا بطرق التعليم في حضرموت، وبالواقع الاجتماعي المتخلف من حوله. وعبّر عن صدمته ورفضه لتلك الطرق وذلك الواقع في القصائد التي نظمها في مرحلتي الصبا والشباب في حضرموت وعدن وجاوا، والمقالات التي نشرها في صحيفة (التهذيب)، ومسرحية (همام أو في بلاد الأحقاف) التي كتبها أثناء إقامته في مدينة الطائف عام ١٩٣٣، وكذلك في الخطبة التي ألقاه في مدرسة النهضة بسيؤن، داعيا فيها قومه إلى التجديد والخروج من دوائر التخلف والجمود التعليمي والاجتماعي.

حظي باكثير بعدد كبير من الدراسات والكتب والرسائل العلمية التي تناولت حياته وأدبه. ومع ذلك لم نجد بين جميع من كتبوا عن باكثير من تناول

بتأن تلك النصوص التي حارب بها الجمود التعليمي والاجتماعي في حضرموت، على الرغم من أهميتها البالغة. وقد أشار الدكتور محمد أبو بكر حميد إلى أهمية موضوعي الجمود والتجديد عند باكثير في تقديمه لديوان (سحر عدن وفخر اليمن) في سياق حديثه عن الصراع الإرشادي-العلوي، قائلا "على أن المسألة التي شغلته أثناء هذا الصراع هي الخروج بقومه من الجمود إلى الانفتاح، ومن التقليد إلى التجديد، ومن الجهل إلى العلم".

لهذا اخترنا أن نتناول في الجزء الأول من هذه الدراسة ما كتبه علي أحمد باكثير لمحاربة الجمود والدعوة إلى التجديد في مجال التعليم في حضرموت في الثلث الأول من القرن العشرين، وتحديدا في ديوانيه المنشورين (أزهار الربا في شعر الصبا) و(سحر عدن وفخر اليمن)، وصحيفة (التهذيب)، ومسرحيته الأولى (همام أو في بلاد الأحقاف).(٢) وسنقف في الجزء الثاني أمام جهوده لمحاربة الجمود الاجتماعي. وفي نهاية هذه الدراسة المتواضعة سنحاول أن نبين كيف يربط باكثير بين الدعوة إلى التجديد في حضرموت في الثلث الأول من القرن العشرين وبين عودة عدد من المهاجرين الحضارم إلى وطنهم، وكيف أن المقاومة الشديدة التي تعرضت لها جهود باكثير لمحاربة الجمود في بلاده قد أجبرته إلى مغادرة حضرموت مثل من سبقوه من دعاة التنوير والتجديد في ذلك الحين.

أولا: محاربة الجمود والدعوة إلى التجديد في مجال التعليم

حينما قدم علي أحمد باكثير إلى حضرموت التحق بمدرسة النهضة بسيؤن (التي أسست سنة ١٣٣٩- ١٩٢٠) وتم تسجيله في أعلى الصفوف فيها. ويحتوى ديوانه الأول (أزهار الربا في شعر الصبا) قصيدة بعنوان (مدرسة النهضة) يذكر المحقق د. محمد أبو بكر حميد أنها قيلت بمناسبة تأسيس بيت مدرسة النهضة، ص٦٦، وقصيدة أخرى بعنوان (نصيحة على لسان تلميذ) وتحمل تاريخ ١٣٤٠-١٩٢١. وهذا يجعلنا نجزم أن علي أحمد باكثير قد تعلم اللغة العربية في المدرسة الخيرية بإندونيسيا بشكل رفيع ولفترة زمنية لا بأس

بها. ولاشك أن المناهج وطرق التدريس المتبعة في تلك المدرسة التابعة لـ(جمعية خير) كانت متطورة مقارنة بالمناهج التي استخدمت في مدرسة النهضة بسيؤن عند افتتاحها. ويمكن أن نذكر هنا أن الأستاذ محمد بن هاشم الذي ذهب في مطلع القرن العشرين إلى إندونيسيا، قد كلف سنة ١٩٠٧ بالتدريس في المدرسة الخيرية بمدينة فلمنباغ. وحينما وضع مناهج حديثة لتلك المدرسة هاجمه بعض (الجامدين) بشدة حتى أبعدوه منها. وأشار إلى ذلك في مقالة بعنوان (حالة المسلمين في جاوا والإصلاح) نشرها في المجلد الرابع عشر من مجلة (المنار) التي كانت تصدر هناك، وربط فيه بين تخلف التعليم وحالة الجمود ورفض الجديد التي يعاني منها الحضارم، قائلا: "من أية وجهة أشرقت علينا معشر الحضارم؟ لا تشاهد إلا منظرا يصهر الفؤاد ويذرف العيون، ويفتت الأكباد، ويرقق قلب الشامت ... أخذ الجمود من كبرائنا مأخذه، وتمكن في نفوسهم اعتقاد أن كل جديد ضار، وأن العكوف على العادات القديمة أنفع ما كان وما يكون، وأن ما سبقنا إليه رجال أوروبا من الخير لا يجوز لنا فعله شرعا. رسخ هذا الاعتقاد في قلوبهم، وامتزج بعقولهم وأرواحهم، حتى صدهم عن استماع الدين، وسدوا فجاج الإصلاح، ودفعوا في صدر الأمة، حتى قهقروها عن التقدم، زاعمين أن التحسين والتنظيم وتسهيل وسائل التعليم مخل بالنسب الكريم أو الدين القديم، ومعاذ الله أن يكونوا في هذا من الصادقين، فإن الفتن في الإصلاح شيء، والدين والأنساب شيئان آخران. وبلغ من تعصب كبرائنا أن حضروا جعل المدارس على الطريقة الحديثة من إقامة طاولات ومكتبات قدام التلاميذ، توضع عليها أدواتهم، وسرر يجلسون عليها ولوح خشبي توضح فيه مشكلات المسائل، وعدوا ذلك من المنكرات، والواجب تغييرها باليد لمن قدر عليهم، لأن في هذا كما لا يخفى تشبها بالكفار ومجاراة لأصحاب النار، بل الواجب علينا أن نقشف مداركنا ونهين تلاميذنا، فنجلسهم على قاعة المدرسة مباشرة أو بواسطة حصير في هذه البلاد الندية، حتى يصابوا بمرض البيري بيري المخوف فيموتوا قريبا، وننفض أيدينا منهم نفض الأنامل من تراب الميت،

وحينئذ نستريح من انتظار نفعهم في المستقبل... ولكن مع كل هذا نرى الجامدين والمتعصبين من قومنا العرب لم يرضهم فعلنا، بل قاموا يشتموننا ويقدحون في أعراضنا، ويصادرون نهضتنا، وينفرون الناس عن مدرستنا، في وقت نحن أحوج الناس فيه إلى مساعدتهم".(٣)

وفي كتابه (رحلة الثغرين) يؤكد الأستاذ محمد بن هاشم أن "حضرموت كلها ليس بها للمعارف سوق ولا رواج، وأن وجدت بها كتاتيب الأطفال فإنما هي أمكنة حقيرة وظيفتها إخراج من يؤمها من عمق الأمية إلى طرفها. وفي أمهات المدن كتريم وسيئون وغيرهما معاهد مبعثرة تقتصر على تدريس الفقه والنحو وسرد من التفسير والحديث وكلام السلف".(٤) أما حسن بن علوي بن شهاب - أحد أساتذة رباط تريم والمنادين بإصلاح التعليم آنذاك- فقد ذكر في رسالته (النحلة لإنهاض الوطن ومن به فطن، سنغافورة ١٣٣٠) "إن أمر التعليم في حضرموت قد صار عند الكثيرين من الرسوم والتقاليد التي تؤدى فقط. وغالب تلك الطرق المتبعة في طرق التدريس والإرشاد مفوتة للغرض مضيعة للزمن".

لهذا لم يكن من الصعب على باكثير أن يلمس بسرعة مدى تخلف طرق التعليم المتبعة في حضرموت التي اشتهر أهلها بالعلم والعلماء، وأن عليه، بدلا من أن يتعلم من أهله في سيؤن، أن يعلمهم ويأخذ بيدهم ليتمكنوا من تعليم أبنائهم وبناتهم. فحينما أصبح في نهاية سنة ١٩٢٥ مديرا لمدرسة النهضة بسيؤن سعى إلى إصلاح مناهجها، ووضع طرقا حديثة للتدريس بها. فبعد أن كانت مناهج المدرسة محصورة في تدريس الفقه والحديث والنحو بطرق التحفيظ التقليدية المرهقة للتلاميذ الصغار، أدخل أساليب تعليمية سهلة تتناسب مع قدراتهم، ومواد علمية جديدة مثل التاريخ والجغرافيا والإنشاء والأدب.

وفي ظل غياب الصحافة ووسائل التوعية الأخرى وظف علي باكثير قريحته الشعرية لشرح برنامجه الإصلاحي، وتحفيز التلاميذ والأساتذة ودعوتهم إلى النهوض والتخلص من الجمود. ففي مطلع عام ١٩٢٦ ألقى في المدرسة

قصيدة تقع في ٧٦ بيتا نظمها على مطلع دالية البرعي الشهيرة (تنبهوا يا رقود) يقول فيها:

تنبهوا يا رقودُ … إلى متى ذا الجمود؟
إلى متى ذا التواني … إلى متى ذا القعود؟
أحوالنا في انحطاط … وعلمنا لا يزيد
فقه ونحو وباقي الـ … علوم منا طريد(٥)

وبمناسبة ظهور كتاب (التربية النسائية) للعلامة عبد الله بن محمد السقاف ألقى قصيدة بعنوان (استنهاض في تقريض) ينبّه فيها منتسبي المدرسة وبني قومه عامة إلى المخاطر الوخيمة للجمود قائلا:

يا أيها الشعب الكريم … أما لموتك من نشور؟
مضت الدهور عليك في … ندم على إثر الدهور
هبّت شعوب وارتقت … أمم وأنت على الحصير
متثاقل متثائب … كسلان أوهنه الفتور
فيك **الجمود** قد تغلغل … للقلوب من الصدور
ومن القلوب إلى العقو … ل فلم يرع منا شعور
أسر العدو أخف من … **أسر الجمود** على البصير
هذا على الأجسام … والثاني على الأرواح نير
الدين يأمر بالتحر … ر من خيالات الأمور
الدين يأمر بالحيا … ة وليس يأمر بالدثور(٦)

وقد أورد د.محمد أبو بكر حميد في دراسة له عن باكثير نصوصا من اليوميات التي كان باكثير يدون فيها ملاحظاته حول مستوى أداء الأساتذة، ومستوى فهم التلاميذ واستيعابهم، وما يدخله من تغييرات في طرق التدريس. مثلا في اليوم الأول (٢٦ ربيع الأول ١٣٤٤هـ، الموافق ١٤أكتوبر ١٩٢٥م) كتب ما يلي:

"* لا يسوغ تقرير رسالة النحو لكتابة وحفظ ذلك التقرير؛ لأن ذلك مما

يجعل التلامذة يتكلون على الألفاظ ولا يعبئون بالمعاني فينشئون على ذلك وهو مذموم.

* تقريب فهم مسائل النحو بكتابة أمثلتها في السبورة ليشاهدوا ذلك مشاهدة حية.

* تعليم الحساب على النسق الجديد وهو إجراء المسائل عند تعليم القواعد، لا تعليم القواعد فقط.

* لاحظنا أن القسم الثالث منحطون جداً في الإملاء فبحثنا عن سبب ذلك، فوجدناه ناشئا من قلة اعتناء الأساتذة بفن الإملاء، ومن تعليمهم إياه في الألواح الأردوازيه (الألواح الصغيرة) ولا يناسبهم إلا تعليمهم في السبورة. وشرح مثل هذه الأشياء لا يليق باليوميات".(٧)

ومن الوسائل التربوية الجديدة التي أدخلها باكثير على نظام التعليم في المدرسة: الأناشيد المدرسية. فبمناسبة الاحتفال السنوي للمدرسة قام بوضع نشيد للتلاميذ يقول فيه:

بنهضة العلم شخص العلم قد نهضا … وعنصر الجهل في أيامها انقرضا
وقد توطد ركن الدين وانتشرت … أعلامه، وبدا صبح الهدى وأضا
اليوم يوم به سيئون زاهية … مملوءة فرحاً إذ نالت الغرضا
اليوم يوم به حل السرور بنا … يوم احتفال وإقبال ويوم رضا(٨)

وبسبب هذا النشيد اشتدت حدة أصوات الجامدين المعارضين لباكثير ومساعيه الإصلاحية. فاضطر باكثير أن يلجأ إلى وسائل جديدة للدفاع عن برنامجه: الصحافة والخطبة. وبمساعدة قريبه محمد بن حسن بارجاء أصدر علي باكثير سنة ١٣٤٩ / ١٩٢٩ صحيفة (التهذيب). وهي صحيفة دينية علمية أخلاقية شهرية أنشئت لتهذيب العقول وتنوير الأفكار ومحاربة الجمود والتخلف في المجتمع، وتنسخ بخط اليد، وكان يصدّر كل عدد منها بالسؤال والجواب الآتيين: "س: ما هو التهذيب؟ ج: قبس تألق من سنا حرية سيكون فاتحة النهوض الحضرمي". وقد كتب في العدد الثاني منها:

"إننا قد كتبنا في عدد ماض من التهذيب مقالا ضافيا دعونا إلى عمارة الوطن على شريطة أن نأتي البيوت من أبوابها ونبدأ بالأهم المقدم. كما أننا قد بينا فيه أن من أسباب فشل الأعمال وإخفاق المساعي أمراضا اجتماعية تعترض سير العاملين فينبغي قبل أن نضع الدواء أن نعرف مواضع الداء. وأننا اليوم نصرح بأن أول حجرة توضع في أساس الإصلاح الدعاية والنشر حتى تتنور الأفكار وتتخلص من **قيود الجمود** فيكثر فينا عديد الكتاب المفكرين والأدباء الناهضين الذين في أقلامهم الترياق النافع لأدواء الجهل والجمود فتعرف الأمة الحضرمية مواقع الكلام وتميز بين النافع والضار وتترقي لغة الضاد في نشأتها رجال المستقبل".(٩)

وقد نشر باكثير في العددين الأول والثاني من هذه الصحيفة الخطبة التي ألقاها في ١٣٤٩/١/٤هـ، الموافق ٣١ مايو ١٩٣٠، بمناسبة الاحتفال السنوي لمدرسة النهضة، ليبيّن مخاطر داء الجمود، وقال فيها:

"أيها السادة الكرام. إنه لم يحملني إلى إلقاء كلمتي هذه في هذا الموضوع القارص إلا أني رأيت هذه الأدواء عالقة بنا متغلغلة في أعماق نفوسنا: داء **الجمود**، وداء التقليد، وداء التسرع، في الحكم بدون معرفة ولا علم. وإليكم البيان: أما الجمود فقد بلينا به بلاء عظيما فجمدنا في كل شيء حتى في علومنا ومعارفنا. كان علماؤنا لا يقتصرون على فن دون فن بل يتوسعون في جميع العلوم الموجودة في عصورهم ويرحلون في طلبها إلى مصر والشام والحرمين والهند والأستانة وغيرها في البلاد الإسلامية. وفي (المشرع الروي) شواهد لا تحصى على ذلك. واليوم اقتصرنا من العلوم الشرعية على الفقه، ومن العلوم العربية على النحو. ورأينا أن من العبث أن نضيع أوقاتنا في ما لا طائل تحته ولا فائدة فيه بزعمنا. كأننا قد اهتدينا إلى ما لم يهتد إليه أولئك العلماء المتقدمون رضي الله عنهم، وأدركنا ما غاب عنهم من عدم الحاجة إلى تلك العلوم، فتركناهما راضين بتأخرنا هذا، مغتبطين باهتدائنا إلى هذا السر العظيم. ويا ليتنا وقفنا عند حد الترك لتلك العلوم فقط، ولكنا لم نكتف بذلك حتى حذرنا إخواننا

وأبناءنا من بعضها، زاعمين أن علم التاريخ يغير عقائدهم، والإنشاء يخالف بهم سيرة السلف. والويل كل الويل للأدب ذلك البلاء الكبير والشر المستطير. فهو بزعمنا منبع الشرور ومصدر البدع وعلة الرزايا وأصل كل البلايا. ولو تروينا يسيرا لعرفنا أن التاريخ هو ديوان العبر، وأن جزءا كبيرا من كتاب الله تعالى تاريخ. وأنه لمن العيب الفاضح والعار الشائن على الرجل المسلم أن لا يعرف تاريخ الإسلام وما تقلب فيه من الأدوار و ما تعاقب عليه من الأحوال في مختلف الإعصار. ولو تأملنا قليلا لعرفنا أن فن الإنشاء من أهم الفنون، وأن العالم الذي لا يستطيع أن يعبر عما في ضميره أو يكتبه بعبارة فصيحة لا ينتظر أن ينتفع بعلمه أحد ولو بلغ من سعة العلم والبسطة فيما بلغ".(١٠)

ويمكن أن نشير هنا إلى أن باكثير قد أعاد صياغة هذه الخطبة شعرا في مسرحيته الأولى (همام أو في بلاد الأحقاف) التي ألفها في الطائف سنة ١٩٣٣، ونشرها في مصر في العام التالي، وذلك على لسان البطل الذي يؤكد لأصحابه عدم ملائمة طرق التدريس المتبعة في مدرسة سيؤن وتخلفها، ودعوهم إلى تغييرها، قائلا:

"يا بني مدرستي إني لكم ناصح يصفيكم النصح أمين
لبنات الشعب أنتم فليكن كلها من ذلك الصلب المتين
إن برنامج تدريسكم ليس برنامج قوم مرتقين
ترهقون النشء بالحفظ فمن حفظ تقرير إلى حفظ متون
ليس في ذاكم لهم من صالح إنه يقتل فهم الناشئين
فدعوا الحشو وربوا فيهم ملكات الحذق في كل الفنون
استقوا التوحيد من ينبوعه وانبذوا كتب الصفات الأربعين
واقصدوا في الفقه لا يأخذكم ليس في الفقه غذاء الناهضين
.... ملتفتا للشباب
أسمعوني يا شباب الحي لا يُقصكم عني مقال الجامدين
..... ليس في الفقه غذاء الناهضين

اقرأ وافقع حديث المصطفى تعبروا الشك إلى بر اليقين
لا تهابوا اليوم أن تجتهدوا إن سر العلم للمجتهدين!!".(١١)

وفي تلك الفترة المبكرة التي لم يكن فيها ذلك التعليم (المتخلف) متاحا إلا لعدد محدود جدا من الأولاد لم يتردد علي أحمد باكثير في توجيه النقد للمجتمع الذي أهمل تربية البنات ودعاه إلى الاهتمام بهن، وكان بذلك من أوائل الذين طالبوا بتعليم البنات في حضرموت:

فيم غادرتم البنات على جهلٍ وقمتم تعلمون البنينا؟
هل أقمتم مدارساً للواتي إذ أقمتم مدارساً للذينا؟ (١٢)

وفي قصيدة نشرها في العدد السادس من صحيفة (التهذيب) لم يتردد في جعل تعليم البنت واجبا شرعيا، حيث يقول:

كيف السبيل إلى النهو ض وأمهات النشء عور؟
أبدون تربية الإنا ث تفيد تربية الذكور؟
أيلدن أحياءً وهن من الجهالة في قبور؟
كلا ورب العرش كيف يكون من ظلماء نور؟(١٣)

وفي مسرحية (همام أو في بلاد الأحقاف) يقول البطل لأخته:

صار فرضا عليك أن تتشري هذا الهدى في جماعة النسوان
فهدى الشعب من هدى أمهـ ـات الشعب في كل موطن وزمان
وبنات الأحقاف أولى بأن يحـ ـذقن شتى العلوم والعرفان
وبأن يطهرن من لوث الأوهام مما يدخل بالإيمان
فيرين الحياة من غير معنىً غير تلك الحياة وهي معاني!(١٤)

ثانيا: محاربة الجمود الاجتماعي

في سياق حديثه عن الأوضاع التي دفعته إلى تأليف أولى مسرحياته (همام أو في بلاد الأحقاف) كتب علي باكثير في (فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية): "كنت إذ ذاك ممتلئا بالثورة على ما كان عليه حال بلدي حضرموت من التخلف عن ركب الحضارة والتأخر في كل ميدان من ميادين

الحياة، وبالسخط على الأوضاع الاجتماعية السائدة هناك".(١٥)

وهذا ليس غريبا؛ ففي مقدمة البيان الذي نشرته جمعية الأخوة والمعاونة بتريم – عام ١٩٣٢– جاء ما يلي: "إن حضرموت في نصف القرن الرابع عشر الهجري قد بلغت منتهى درجات التأخر والانحطاط والفوضى في جميع نواحيها: سياسيا وثقافيا واجتماعيا، حيث منيت بسلاطين مستبدين وعشائر حضرية وبدوية تثير الفتن والقلاقل لافتة الأسباب. وليس لها من شغل سوى قطع الطرق ونهب الأموال وإرهاب العزل وقتل الأنفس وإرساء الخوف والرعب والقلق. وفي المدن لا توجد عدالة تحمي حقوق الناس ولا محاكم شرعية أو مدنية للفصل في قضايا المظلومين وهم يبقون تحت رحمة السلاطين وزعماء المماليك ورؤساء القبائل وأرباب المناصب الروحية والمال".

لهذا ليس غريبا أيضا أن يصطدم الشاب علي أحمد باكثير بتلك الأوضاع السيئة التي تعيشها بلاده ويثور عليها، ويربط بينها وبين الجمود والبدع والتقاليد البالية. وعبّر عن ثورته تلك في افتتاحية العدد الخامس من صحيفة (التهذيب) الذي صدر في منتصف عام ١٩٣١ الموافق للأول من ذي الحجة ١٣٤٩ بعنوان (التذكير)، قائلا: "لا لا. إن الرجوع إلى الحق خير من التمادي على الباطل. فلابد للمسلمين من النظر في هذه النقطة والتفكير فيها لكيما يشعروا بالحاجة إلى الإصلاح أولا، ويفكروا في وسائله ثانيا، حتى إذا اتضحت لهم السبل جدوا فيها السير إلى حيث يرتجعون مجدهم العابر وعزهم الذاهب. أما ما داموا غير شاعرين بتأخرهم وانحطاطهم وانحرافهم عن جادة الشرع وابتعادهم عن روح الإسلام، وما داموا مغرورين بأنفسهم تظن كل طائفة منهم أنها مظهر الدين الأجل ومثله الأعلى، وما داموا متشبثين بالبدع والأوهام والخزعبلات، وما دام العلماء منهم ذوو المعرفة ساكتين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدع بالحق، يخافون لوم اللائمين، وزعم الزاعمين، وما داموا وما داموا.. فلا فلاح ولا نجاح ولا رقي ولا تقدم ولا نهوض من لكبوة وإقالة من العثرة، وسيبقون في هذا العذاب العظيم في الدنيا، عذاب الذل والصغار والبؤس

والهوان، عذاب الاحتقار وعدم الاعتبار من الأمم الحية، وعذاب الاستعمار الوبيل، عذاب الجهل وعذاب الانحطاط، عذاب فساد الأخلاق، عذاب التدهور والتلاشي، عذاب الانحلال والاضمحلال وفقدان الاستقلال، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون".(١٦)

ويؤكد علي باكثير أن **جمود الحضارم** (المسلمين) وتمسكهم ببعض العادات السيئة، وعدم اعتبارهم بالحوادث ودروس الماضي هو سبب تخلفهم. ففي افتتاحية العدد الثامن من (التهذيب ، ربيع الأول ١٣٥٠) التي يتحدث فيها عن ذكرى المولد النبوي مثلا ينتقد عدم اقتداء المسلمين بأفعال عظمائهم وكبار رجالهم، ويقول "ليس بالمسلمين إلا جمودهم وعدم اعتبارهم واستبصارهم واكتفاؤهم بمجرد القول فقط، بدون تحقق معناه بالفعل".(١٧)

ويرى أن الجمود هو سبب تقهقر دور الحضارم في الاقتصاد و التجارة في جزر الأرخبيل الهندي حيث أصبح الصينيون منذ نهاية الحرب العالمية الأولى هم الذين يقودون التجارة فيها، وذلك رغم شهرة الحضارم الكبيرة في هذين المجالين. ويؤكد أنه إذا كان الحضارم قد تفوقوا في السابق، فاليوم تخلفوا بسبب جمودهم واعتمادهم على التقاليد القديمة وإهمالهم للعلم والطرق الحديثة:

يا حبذا تلك الجزائر إنها ... جنات عدن نسقت تنسيقا
لم ينشئ الباري بدائع وشيها ... إلا إلى جناته تشويقا
أثرى بها قومي وشادوا دولة ... للدين طاولت السماء سموقا
نشروا بها القرآن فازدادت به ... مرأى على المرأى الأنيق أنيقا
لم يلههم همُ ابتغاء الرزق أن ... يقضوا لدينهم القويم حقوقا
تركوا لهم بين الأهالي حرمة ... كادوا بها أن يعبدوا المخلوقا
وجروا بمضمار التجارة سبقا ... لم تستطع بهم الشعوب لحوقا
حتى أتى عصر العلوم فأحجموا ... إذ شمرت تلك الشعوب السوقا
فإذا بها عرفت مصايد ريحها ... وإذا بقومي ينكرون السوقا...(١٨)

ويكرر شكواه من (تأخر) بني قومه في قصيدة أخرى ألقاها بمناسبة وداع

رمضان من عام ١٣٤٩هـ-١٩٣١، يقول فيها:

شهر الهدى أشكو إليك تأخرا ... من أهل دينك في الزمان المعلم
فيه الشعوب استيقظت من نومها ... فمتى هبوب المسلمين النوم؟
جهلوا حقائق دينهم فتأخروا ... وجنوا عيه العار إذ بهم رمي
وعلا العدى درجا ففازوا بالمنى ... ومن سلم الإسلام أعلى سلم
فإذا مع القوم الكرم قشوره ... وإذا اللباب مع العدو الأظلم(١٩)

أما في قصيدة (صدى النهضة الحضرمية) التي نشرها له محرر مجلة الأستاذ طه بن أبي بكر السقاف في مجلة (النهضة الحضرمية) بسنغافورة سنة ١٣٥١، فقد بيّن باكثير أن تقدم الحضارم مرهون بالعودة إلى تعاليم القرآن والسنة، والتخلص من الجمود والفرقة والعادات العتيقة، وتقبل الجديد:

أبني أبي إن الشقاق مذلة ... والدين نصح والإله شهيد
ماذا التعالي والتلاحي بينكم ... والحال تؤلم والعدو يكيد؟
وبنو الفرنجة سائدون بينكم ... فعلام يفخر أعبد ومسود؟
ثوبوا إلى القرآن لا يصددكم ... عنه جحود أو هوى وجمود!
وذروا التقاليد العتيقة إنها ... عبءٌ على المتنورين عتيد
لا تنكروا التجديد في عاداتكم ... فالعصر من آياته التجديد
وامشوا على سنن الخليفة إنها ... تبقى وتثبت، والجبال تبيد
ومن العناء بناء سد حاجز ... في وجه سيل ما تقيه سدود.
طه عليك من البحار تحية ... كنسيم خلقك نفحها المودود
نوه بآداب البلاد مباهيا ... تخفق عليها للفخار بنود
وانشر محاسن حضرموت فإنها ... للباقيات الصالحات ولود
واندب إلى الإصلاح بالحسنى فلا ... إصلاح حيث اللوم والتنديد
وانع الجمود فنعيه أشهى إلى ... أسماعنا مما يرد العود(٢٠)

ويكرر دعوته تلك إلى التخلص من الجمود والبدع والعادات العتيقة، والعودة إلى هدى نبيهم صلى الله عليه وسلم، قائلا بني قومه في قصيدة (لولا

جمود الحضرمي) التي ألقها بمناسبة توقيع الصلح بين العرب المتخاصمين في جيبوتي سنة ١٩٣٣، وقال فيها:

توبوا إلى هدي النبي وصحبه — تجدوه سهلاً واضحاً مطروقا
وعقيدة السلف النقيـــة إنهـــا — أقوى وأقـــوم حجة وطريقا
وأقضوا على البدع المضلة إنها — بدع هوت بالمســلمين سحيقا
هي ضيعت أوطانهم هي مزقت — سلطانـــــهم وكيانهم تمزيقا
لولا **جمود الحضرمي** وجهله — بلغت مواهبه به العيـــوقا!(٢١)

وفي رأي باكثير، يُعد **داء الجمود** من أهم أسباب الفتنة التي برزت بين الحضارم في إندونيسيا وفرقتهم إلى إرشاديين وعلويين. فأثناء زيارته لإندونيسيا سنتي ١٩٢٧-١٩٢٨ اصطحب باكثير مفتي الديار الحضرمية العلامة عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف إلى مسقط رأسه: سورابايا. وفي ليلة ١٨ رمضان ١٣٤٦هـ الموافق ٩ مارس ١٩٢٨م ألقى ابن عبيد الله خطبة بليغة في مسجد الصرنج في محاولة لإخماد الفتنة وتوحيد الصف ثم توجه إلى بيت آل باكثير حيث حياه علي أحمد باكثير بقصيدة تقع في ٥٨ بيتا، قال فيه:

لله درك من تـــقـــي — يسعى لتسوية الخصام
ما قام قبلك من دعـــا — لسوى التحزب والصِّدام
فارفع نداءك يا خطيب! — فإن أمـــتنا نيام
داء الجمود انساب منهم في — اللحوم وفي العظام
قم جد في هذي السبيـــل — انهض لتحقيق المرام
أنا قلت ما قـــد قلت عن — قلب يؤجـــجه الضِّرام
يهوى الرقي لحضرموت — لمستوى المدن العظام
ويسوؤه هذا الجمـــو — دُ على شبارقها الــقدام.(٢٢)

وفي قصيدة قالها بمناسبة تأسيس مدرس عربية في أديس أبابا عام ١٩٣٢، انتقد باكثير تفكك الحضارم وفرقتهم في اندونيسيا، وحيّا تضامن العرب في الحبشة واهتمامهم بنشر العلم، ثم دعاهم جميعا إلى العمل والخروج

من دائرة الجمود، قائلا:

مضى زمنُ الجمود فودِّعوه — ووافاكمْ زمـــانُ العاملينا!
زمانٌ ليس يعلـــو فيه إلّا — عصاميٌّ جرى في السابقينا
وإن لنا مواهب ســاميات — بني الأحقاف أدهشـتِ القرونا
ألا فاستعملوها في المعالي — تنالوا في الورى المجدَ الأثينـا
فقد لعبت بأدوار كِبـــار — جُدودكـــمُ الكرامُ السالفونا
ولو ثُقفت يوماً حضرمياً — لجـــاءك آيةً في النابغينا(٢٣)

هل انتصر الجامدون؟

من المؤكد أن تجربة علي باكثير في إدارة مدرسة النهضة بسيؤن كانت مريرة. فقد قوبل برنامجه لإصلاح التعليم فيها بمعارضة كبيرة وسريعة من قبل الجامدين. ولم تقتصر مساعي المعارضين على محاولة إبعاد باكثير من المدرسة بل تدخلوا في شئون حياته الشخصية. فالأستاذ أحمد عبد القادر باكثير يؤكد في الدراسة التي قدمها لمهرجان باكثير (سيؤن ١٩٨٦) أن هؤلاء المعارضين قد طلبوا من سعيد باسلامه أن يرفض تزويج بنته نور من علي باكثير "الذي ينشر أفكارا جديدة بين الشباب، وعلى اتصال بالمجددين الخارجين عن طريق السلف".(٢٤) وقد أدى ذلك إلى مرض علي باكثير الذي لزم الفراش. وعلى الرغم من هجومه ضد الاغتراب والهجرة والحياة بعيدا عن الوطن،(٢٥) وعزم على مغادرة حضرموت بعد أقل من عام من توليه إدارة مدرسة النهضة. وأشار إلى عزمه ذلك في رده على قصيدة مواساة كتبها له ابن عمه عمر محمد باكثير في يونيو ١٩٢٦، حيث قال:

دعيني أيها الحمـــى أجيب — أخا ثغر الزمان به شنيب ...
بأرض ترخص الأعمار فيها — تهون إذا بقي المال الخطوب
أرى حولي أناسا ليس فيهم — شعـــور لا ولا لهم قلوب
وينتسبون للعلم إدعاء — وعلمهـــم أتى زيد رقيب
وعندهم جمود الطبع فضل — وقول الشعر عـــندهم معيب...

سأنهض من سقوطي غير شاك ولا وان وربي لي حسيب
وأركب ذروة الأخطار إني ليعجبني على الخطر الركوب
سأرحل من بلاد ضقت فيها تلازمني بها أبدا شعوب
فأجتاز البحار لأرض جاوا إلى حيث المقام بها يطيب
وأعبر مصر حيث العلم حيث الحضارة حيث يحترم الأديب
وحيث الشعر خفاق لواه وحيث الضاد مرعاها خصيب(٢٦)

وفي مطلع شهر يوليو من عام ١٩٢٦، قبيل مغادرته إلى مسقط رأسه بإندونيسيا، ألف قصيدة في ٢٦ بيتا أشار في نهايتها إلى أولئك المعارضين الجامدين ونواياهم السيئة:

سيئون لي وطن وديني حبها ولو انها قطعت لديك عُرايا
إن مسني ضيمٌ بها فلأنني جاورتُ فيها المُخبثين طوايا
ما إن رأيتُ أقل منهم خبرة وأشدَّ تقليدا وأسمجَ رايا
جهلوا العلوم فأنكروها إذ رأوا أجسامهم من بُردهن عَرايا
هجم الجمودُ عليهمُ فاستسلموا وغدوا لغزاة **الجمود** سبايا(٢٧)

ولاشك أن نجاحه في إقناع سعيد باسلامه بتزويجه بفتاة أحلامه، وكذلك حالة الفرقة التي يعيشها الحضارم في إندونيسيا حينذاك جعلته يعود إلى سيؤن في شهر إبريل من عام ١٩٢٨. وحالما عاد تزوج ممن يحب، وواصل برنامجه الإصلاحي في مدرسة النهضة، بل أنه في نهاية العام التالي (١٩٢٩) قام بإصدار صحيفة (التهذيب) لتكون أداة لبث أفكاره الإصلاحية ومحاربته للجمود كما أسلفنا. ومرة أخرى كان رد فعل المعارضين للأفكار التي ضمنها باكثير مقالاته في تلك الصحيفة سريعا وعنيفا، واستعانوا في ذلك بمختلف الجهات المتنفذة في سيؤن. مثلا حينما نشر باكثير افتتاحية العدد السادس (التذكير)، اضطر المشرف على الصحيفة إلى نشر مقالة توضيحية بعنوان (حول مقال التذكير، في العدد السابع من الصحيفة) كتب فيه "لقد أثار المقال حفائظ كثير من طلبة العلم هنا، وشنعوا بكاتبه، وأنكروا علينا نشره في التهذيب، وقالوا إن هذا

اعتراض على طريقة السلف الحضرميين من الأولياء والصالحين". وينتهي هذا التوضيح بدعوة صاحب (التذكير) "إلى الكتابة في غير هذا الموضوع الذي يؤلمهم كثيرا". ويقول صاحبه "فإذا كان المتنورون من الطلبة قد أنكروا هذا الإنكار فما ظنه بسواهم من الطلبة الجامدين؟ ومتى عاود حضرة الكاتب الموضوع ثانيا فإننا سوف لا ننشر مقاله في هذا الوقت الذي نرى البلاد فيه غير متأهلة بعد لأمثال هذا المقال".(٢٨)

ويبدو أن باكثير قرر يومئذ مغادرة حضرموت مرة ثانية. فبعد شهر (جماد الثاني ١٣٥٠) صدر العدد الأخير من (التهذيب) الذي أعلن فيه صاحبها توقفها عن الظهور. وبعد عيد الضحى من العام نفسه كان باكثير في طريقه في رحلة اغتراب أبعدته عن حضرموت لأكثر من ستة وأربعين عاما.

من خلال ما ذكرناه يتبيّن لنا أن الجهود التي بذلها علي أحمد باكثير في سبيل محاربة الجمود والدعوة إلى النهوض في حضرموت في الثلث الأول من القرن العشرين كان مصيرها المصير نفسه الذي لقيته جهود جميع دعاة التنوير والتجديد الحضارم في تلك الفترة، مثل الشاعر المشهور أبوبكر بن شهاب، ومحمد بن هاشم وحسن علوي بن شهاب. ومن اللافت أن باكثير يربط بين اكتشاف داء الجمود والتخلف الذي تعاني منه حضرموت المشهورة في الخارج بالعلم والعلماء، وبين المهاجرين الحضارم الذين عادوا من المهجر إلى بلادهم للنهوض بها، لكن "لم يسعهم إلا الرضوخ لقضاء الله والاستسلام لما جاء به" ومغادرتها مرة أخرى. فهو يكتب في العدد الثالث من (التهذيب):

"إن كثيرا من عقلائنا المفكرين ورجالنا العالمين يعودون من مهاجرهم بجزائر الهند الشرقية وما والاها، بعد ما اختلطوا بعظماء الأجانب، واقتبسوا من أفكارهم، وأثرت في نفوسهم تلك البيئة المتقفة، فلا يكادون يصلون إلى الوطن حتى يروا ما فيه من نكد الحال وشظف العيش وسوء الانحطاط. وتظهر لهم المقارنة صورة التقهقر المشين والتأخر المؤسف واضحة جلية، فلا يلبثون بعد ذلك أن ينثلوا لإخوانهم ما في كنانتهم من النصائح الثمينة والآراء السديدة، ويصيحوا بملء أفواههم في المجالس

والمحافل داعين إخوانهم إلى الإصلاح والتعبير، متأسفين مما انكشف لهم وحل بيلادهم من فوضى مهلكة وفراغ شائن وظلم غير مدفوع، وشباب لا هم له إلا في المآكل والمشارب والملاهي والملابس، فتشق مريطاؤهم وتبح أصواتهم، ولا يستجيب لهم عند ذلك مجيب، فيضطرهم الحال إلى إخماد جمرتهم المتوقدة والدخول راغمين في ذلك التيار الجارف. لا يستطيع أن ينكر هذا منكر ولا يكذب به مكابر. فهل تعرف ما السبب الحامل لذلك المفكر على ما بثه بلهجة الناصح الأمين وما هي العلة في عدم إجابة ندائه؟ لا جرم أن ذلك المفكر لما مكث في بلاد راقية آخذة بنصيبها الأوفى من الحضارة والعمران، أفاده مكثه واحتكاكه بالأجانب الحنكة والبصيرة بطرق النفع والضر. فلما عاد إلى وطنه ظهر له الفرق العظيم والتباين البعيد فانقض انقضاض النجم ليقاوم تلك الجوانح، وينقذ الوطن من مخالبها. ولكن لما كان مواطنوه – اللهم إلا أفرادا لا يجاوزون عدد الأنامل ولا حركات العوامل- لا يفهمون للرقي معنى، ولا يهتدون للحياة السعيدة سبيلا، لم يلتفتوا إلى قوله بل أقطعوه جانب الإهمال حتى ذهبت أقواله سدى ونادته نفسه تقول: /لقد أسمعت لو ناديت حيا/ ولكن لا حياة لمن تنادي/ فلم يسعه إلا الرضوخ لقضاء الله والاستسلام لما جاء به".(٢٩)

وفي العدد الثامن من صحيفة (التهذيب) كتب باكثير مدافعا عن الأستاذ محمد بن هاشم الذي استدعاه المحسن عبد الرحمن بن شيخ الكاف سنة ١٩٢٦ من مصر ليقوم بإدارة المدارس التي أنشأها في بعض مدن حضرموت، وحاول أن يطبق فيها بعض المناهج التي استخدمها بن هاشم في إندونيسيا، وتعرض للنقد الشديد من قبل الجامدين بسبب ذلك:

"ماذا يقول القارئ في أمة بلغ جمودها على القديم إلى حد أن نسبت النقص والتضعضع الحاصلين في بعض مدارسها إلى إدارة الأستاذ الكبير النابغة السيد محمد بن هاشم إذ تولى إدارتها حينا من الزمن، فنسبت كل نقص وخلل وقع في المدرسة بعد خروجه منها إليه. وهو هو ذلك الرجل المتفوق ذو الخبرة التامة بشؤون المدارس وأنظمة التعليم الذي قضى صفوة عمره وعنفوان شبابه في تأسيس المدارس في المهجر والعملَ على رفع شأن الحضارمة وإعلاء مقامهم".

الهوامش:

* صحيفة (التهذيب)، مجلد المجموعة أعداد السنة الأولى ١٣٥٠-١٩٢٩، الطبعة السلفية، مصر، ص٣٣

(١) هناك اختلاف حول تحديد تاريخ مولد علي باكثير؛ ففي السيرة التي قدمتها العائلة بمناسبة مهرجان باكثير الذي نظم في سيئون سنة ١٩٨٦ ذكر أن تاريخ ميلاد سنة ١٣١٨- ١٩٠٠م وتاريخ قدومه إلى سيؤن بمعية والده: ١٥ رجب ١٣٢٨ -١٩١٠، لكن لا يبدو لنا هذا التاريخ دقيقا إذ أن باكثير – قبل مجيئه من إندونيسيا إلى حضرموت- التحق بالمدرسة الخيرية التي أنشأها الحضارم في سورابايا سنة ١٣٢٩هـ وكان من أوائل الخريجين منها، وثائق مهرجان باكثير ص٥٦، ونرجح أنه من مواليد سنة ١٩٠٦، فديوانه الأول يتضمن أيضا قصيدة بعنوان (أنا في سن العشرين) أرسلها مع رسم له إلى بعض إخوانه سنة ١٣٤٥-١٩٢٦، ص١٠٥)

(٢) كما استشهدنا ببعض القصائد المخطوطة التي كتبها باكثير في الشباب، وأوردها د. محمد أبو بكر حميد في بعض دراساته ووعد بتضمينها في الطبعة الجديدة من ديوان (أزهار الربا في شعر الصبا).

-أزهار الربا في شعر الصبا، تحقيق وتقديم د، محمد أبو بكر حميد، دار المناهل بيروت ١٩٨٧

-سحر عدن وفخر اليمن، تحقيق وتقديم د، محمد أبو بكر حميد، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا ٢٠٠٨

-مجلد مجموعة أعداد السنة الأولى من صحيفة (التهذيب) ١٣٥٠-١٩٢٩، الطبعة السلفية، مصر

-همام أو في بلاد الأحقاف، مطبعة مصر ١٩٣٤.

(٣) انظر مختارات من كتابات شيخ الصحافة الحضرمية الأستاذ محمد بن هاشم، جمع وتحقيق علي أنيس الكاف، مكتبة تريم الحديثة، تريم ٢٠٠٨، ص١٢٠-١٢١

(٤) محمد بن هاشم، رحلة إلى الثغرين الشحر والمكلا، مطبعة حجازي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١١

(٥) من قصائده المخطوطة التي سينشرها د. محمد أبو بكر حميد في الطبعة الثانية من ديوان (أزهار الربا في شعر الصبا). انظر د. محمد أبو بكر حميد (علي أحمد بكثير رائد التنوير الإصلاحي في اليمن)، في مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٦٢، ٢٠٠٩ ، ص٤٤

(٦) أزهار الربا في شعر الصبا، ص١٧٧-١٧٨

(٧) انظر د. محمد أبو بكر حميد (علي أحمد بكثير رائد التنوير الإصلاحي في اليمن)، في مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٦٢، ٢٠٠٩ ، ص٤٣

(٨) أزهار الربا في شعر الصبا، ص٨٨

(٩) مجلد مجموعة أعداد السنة الأولى من صحيفة (التهذيب) ١٣٥٠-١٩٢٩، الطبعة السلفية، مصر، ص٤٨

(١٠) المصدر نفسه، ص٣٧-٣٨

(١١) همام أو في بلاد الأحقاف، ص ٥٦-٥٧

(١٢) المصدر نفسه ص٢٠

(١٣) مجلد مجموعة أعداد السنة الأولى من صحيفة (التهذيب)، ص١١٥

(١٤) همام أو في بلاد الأحقاف، ص ٥٧

(١٥) علي أحمد باكثير، فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، ص ٤٣

(١٦) مجلد مجموعة أعداد السنة الأولى من صحيفة (التهذيب)، ص٨٥-٨٦

(١٧) المصدر نفسه، ص١٤٤

(١٨) سحر عدن وفخر اليمن ص١٠٢-١٠٣

(١٩) أزهار الربا، ص٢٢٢

(٢٠) سحر عدن وفخر اليمن ص١٣٠-١٣١

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٠٦

موقع الأديب
علي أحمد باكثير
www.bakatheer.com

القضايا الإنسانية في شعر علي أحمد باكثير

دارسة فنية بيانية

الدكتور: عيسى ألبي أبوبكر

قسم اللغة العربية

جامعة إلورن نيجيريا

حضرموت منطقة في اليمن الجنوبي على خليج عدن والبحر العربي، مشهورة بوادي حضرموت. تفصلها عن الربع الخالي في الشمال هضبة عالية. تسيل من المرتفعات أودية عديدة أهمها وادي حضرموت الذي يصب عند سيئون في بحر العرب، وتغور بعض الأودية في الرمال الشمالية الشرقية.[1]

إنها بلاد عجيبة في هيكلها عظيمة في بنيانها قديمة في تاريخها تداعب خيال المؤرخين والفنانين وعلماء الآثار ورواة الأخبار، وتتميز بتضاريس جغرافية غاية في التكامل.[2] وفي أحضان هذه الطبيعة الخلابة الجملية نشأ وترعرع أديبنا الكبير وشاعرنا العظيم على أحمد باكثير بعد ولادته لأبوين حضرميين في إندونيسيا نحو عام ١٩١٠م.

ظلت حياة هذا الأديب مجهولة لم يعرف عنها شيء إلا بعد وفاته، ويؤكد لنا الباحث د.محمد أبوبكر حميد الذي بذل جهدا عظيما وأمضى قرابة ٣٠ عاما في البحث والتنقيب عن آثار باكثير الأدبية والدعوة لرفع الظلم عنه: أن باكثير عاش زاهدا في الأضواء قليل الكلام عن نفسه، ولعل هذا الزهد في الأضواء وقلة الكلام عن النفس سبب عدم الاهتمام الذي لاقاه في حياته وبعد مماته.وقد أحسن الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ورابطة الأدب الإسلامي صنعا في رفع الظلم عن هذا الأديب الكبير بالجهد المشترك بين الأدباء والمثقفين والباحثين والدارسين في العالم العربي والإسلامي لإحياء الذكرى

(٢٢) من قصائده المخطوطة التي سينشرها د. محمد أبو بكر حميد في الطبعة الثانية من ديوان (أزهار الربا في شعر الصبا).

(٢٣) سحر عدن وفخر اليمن ص ٩٨

(٢٤) أحمد عبد القادر باكثير (لمحات عن حياة وشعر علي باكثير) في وثائق مهرجان باكثير، دار الحداثة بيروت ١٩٨٨، ص ٨٢

(٢٥) انظر مجلد مجموعة أعداد السنة الأولى من صحيفة (التهذيب)، ص٣

(٢٦) أزهار الربا، ص١٥٠

(٢٧) من قصائده المخطوطة التي سينشرها د. محمد أبو بكر حميد في الطبعة الثانية من ديوان (أزهار الربا في شعر الصبا).

(٢٨) انظر مجلد مجموعة أعداد السنة الأولى من صحيفة (التهذيب)، ص١٣٥-١٣٦

(٢٩) المصدر السابق، ص ٤٧-٤٨

(٣٠) المصدر السابق، ص١٥٦